نفيل تشمبرلن

١٨٦٩ — ١٩٤٠

بذل غاية ما يستطيعه انسان من جهد، وتعرض لأشد ما يتعرض له سياسي من نقد، لكي يصون سلام العالم الخائب أمله وحبط سعيه، وانهكت أعوده التي نطمت له، وتوالى الاعتداء، وكان لا مفرّ من حرب يعلم انها مدمرة ولكنه أقبل عليها بعزم الصلب الذي عرف به في جميع مراحل حياته، ووفى على ختامها وهو يتمنى ان تتاح له فسحة من العيش ليرى هزيمة الشر، وشر القوة الغاشمة والحنث بالعهود والنظم والاستبداد والاضطهاد، على ما قال في بيانه الموجه الى الأمة البريطانية صباح الأحد ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم في بيانه في مجلس النواب ظهر اليوم نفسه. ولكن القدر اراد له غير ذلك فصح ما حكي هو ان يصح، إذ شبه نفسه في خطبة خطبها في ربيع سنة ١٩٣٩ بالوزير «بت» الصغير فقال انه كان مهتماً كالوزير «بت» بشؤون الاصلاح الداخلي ولكنه مضطر مثله الى الانصراف عنها الى شؤون السياسة الخارجية والحرب، وان حتم ألا يكون مصيره واحداً لان «بت» توفي قبل شهد ظفر بريطانيا في الحروب النابوليونية

كان جوزيف تشمبرلين والد نفيل من كبار رجال الاعمال في مدينة برمنغهام الانكليزية فلما خاض ميدان السياسة ظهر فيه على الاقران فما انصف به من الأهلية وناقب الرأي وادة المعارضة فتبأوا له في اواخر القرن الماضي بأنه بلغ أعلى مناصب الدولة — رآسة الوزارة — ولكنه قصر دونه. ولولا مسألة استقلال ارلند الداخلي ومعارضته فيه حلف غلادستون على انقلب زعيماً للاحرار ورئيساً للوزارة. ولولا دعوته الى الحماية التجارية والتفضيل الامبراطوري بعد ذلك حلف بلفور في زعامة المحافظين. وكاد قرران يحقق في كيبه ابنه ما عجز عن تحقيقه في نفسه مكره اوستن لذلك فوجهه الى مدرسة رجبي فالى جامعة كمبردج ثم الى مدرسة العلوم السياسية بباريس وبعدها الى المانيا. وانتخب اوستن عضواً في مجلس النواب وهو في التاسعة والعشرين من عمره وتقلب في مناصب الدولة الرفيعة وتقلد أعلاها ومنها وزارة المالية ووزارة الخارجية ولكن تمسك بأدب السياسة المتوضع عليه في انكلترا حجب بينه وبين الرآسة في حدث لا محل لتفصيله هنا

وعهد جوزيف تشمبرلين الى ابنه الثاني نفيل في إدارة الاعمال في [illegible] الى جزائر بهاما حيث قضى سبع سنوات يخدم [illegible] ثم عاد الى انكلترا فتولى ادارة اعمال الأسرة في برمنغهام

ولكن القدر شاء أن يبلغ نفيل المنصب الذي صبا اليه والده وأعدّه له فعمله [illegible] يدخل ميدان السياسة الانكليزية الا وهو في الخمسين من عمره

عني وهو في برمنغهام بمسائل الاصلاح المحلية فانتخب عضواً في مجلسها البلدي ثم محافظاً للمدينة . فأصبح مساكن العمال ونظم شؤون الصحة العامة وأنشأ بنكاً للتوفير . وقد فعل ذلك على الرغم من ان اخوانه المحافظين أتهموهُ بالاشتراكية وهي تهمة كانت في ذلك الوقت كافية لتنفي من لم يكن مثلهُ صلب العزيمة عن المضي في الاصلاح . ودعي الى تقلد منصب في الحكومة في لندن سنة ١٩١٥ — ١٩١٦ فتقلده بضعة أشهر ثم تخلى عنهُ لان الوقت لم يكن ملائماً للسير فيه وفقاً لما يراه وعاد الى برمنغهام

وفي سنة ١٩١٨ رشح نفسه للنيابة ففاز بها وكان في الخمسين من عمره وترقى سريعاً فعين وزيراً للبريد فوزيراً للمالية فترة قصيرة ثم وزيراً للصحة سنة ١٩٢٤ . ولا يزال الرأي الانكليزي في الدوائر المطلعة مجمعاً على أنهُ أعظم وزير تقلد وزارة الصحة في بريطانيا . ذلك بأن خبرتهُ في منصب المحافظة لمدينة برمنغهام وعنايته بشؤون مساكن العمال والصحة العمومية فيها أهلتهُ لمعالجة المشكلات نفسها في نطاق أوسع . فقضى خمس سنوات يكافح في سبيل تحسين مساكن العمال وفاز باقرار «قانون تشمبرلن لبناء المنازل» وأشرف بمقتضاه على بناء مليون منزل جديد للعمال يدخلها نور الشمس ويتخللها الهواء النقي وتتوافر فيها أسباب النظافة والدفء . ومن المأثور عنهُ أنهُ قال : « لا بدَّ من إصلاح الحال قبل خروجي من هذه الوزارة » . ووجه عناية خاصة الى الأمهات النفساوات وخفض معدَّل الموت بينهنَّ لأن والدتهُ توفيت نفساء على أثر وضعه

فلما عصفت رياح الأزمة الاقتصادية العالمية ببريطانيا سنة ١٩٣١ وألف مكدونلد الوزارة القومية الأولى أختير تشمبرلين وزيراً للمالية وظل محتفظاً بهذا المنصب الى أن خلف المستر بولدوين رئيساً للوزارة في مايو سنة ١٩٣٧ على أثر تتويج الملك جورج السادس

في وزارة المالية تجلت أخلاقه . فهو حازم لا يعرف التردد ، منظم لا يرضى التراخي ولا الاضطراب ، متدين لا تغيب عنهُ العاطفة ، صريح يأبى المداهنة ، محافظ في الشؤون المالية لا ينحرف الى المغامرة في تجربة الغير من المذاهب . كانت الدولة تواجه شبح الافلاس عندما تقلد وزارة المالية سنة ١٩٣١ فوضع يده على الدفة وسير السفينة في بحر متلاطم الأمواج الى بر السلامة والرخاء . وزان الميزانية بعد إضطراب ووفر المال فتتابع الاعمار بعد إزوائه في خزائن البنوك وانتعش الدولة عشرات الملايين بمقدم أكبر صفقة تحويل مالية في التاريخ إذ خفض الفائدة على الدين العمومي ومن لا يرض بهذا الخفض فليقدم سنداته وليأخذ ماله . فما انقضت سنة ١٩٣٧ حتى كانت بريطانيا على طريق الرخاء . هذه الاعمال رفعت من شأنه في مجلس الوزارة وعززت من خطوته . وهذا يفسر على ظن المتتبعين لمشاهد السياسة البريطانية انهُ الخلف المحتمل للمستر بولدوين بعد انتهاء حفلات التتويج في مايو سنة ١٩٣٧ وكذلك كان

وما كاد يتقلد رآسة الوزارة حتى اقتضح لزملائه فيها ان الرئيس جمبرلين خديد خطة معينة يريد تنفيذها وعندما اختار معاونيه في شتى انحاء الوزارة لم ينظر الى آرائهم فقط بل قدم على ذلك قدرتهم على التعاون معه في تنفيذ الخطة التي يرسمها. وقد اضطر آنا بعد آن ان يتخلى آسفاً عن معاونة هذا الوزير او ذاك فخرج ايدن من الوزارة اولاً (فبراير ١٩٣٨) ثم دف كوپر (اكتوبر ١٩٣٨) ثم هور بيليشا (١٩٤٠)

ومما لا ريب فيه ان اسم نفيل تشمبرلين سيبقى ابداً متصلاً بحوادث سبتمبر سنة ١٩٣٨ وطيرانه — لأول مرة في حياته — ثلاث مرات الى المانيا محاولاً بكل ما استطاع ان ينقذ سلام اوربا مما كان يهددها في تلك الأيام العصيبة. وكان مقتنعاً حقاً وصدقاً ان الاتفاق مع الدكتاتوريين مستطاع. ولكنه على ما يوحي لم يكن يصدق ان في العالم حكاماً يستطيعون ان يخلعوا أثواب الذئب وراء صوف الخراف. فالناس الذين تعوَّد معاملتهم في ميدان الأعمال وميدان السياسة كانوا لا يخالفون وعداً ولا ينكثون عهداً قطعوه. فلم يكن في وسعه ان يتصور ان رئيس دولة يستطيع ان ينكث عهداً قطعهُ لرئيس وزراء بريطانيا !

وكان عليه ان يواجه حقيقة أخرى. وهي ان فرنسا مرتبطة بمعاهدة مع تشيكوسلوفاكيا تلتزم عنها المحاربة معها اذا اعتدت عليها المانيا. وكانت بريطانيا قد تعهدت لفرنسا بأن تحارب معها اذا خاضت حرباً مع المانيا لم تكن فرنسا فيها الدولة المستفزة أو المعتدية

ولكن كان هناك ما يدعو الى ان فرنسا لم تكن حازمة أمرها حينئذٍ فتنهض بعهدها لتشيكوسلوفاكيا ويضاف الى هذا ان تأهب بريطانيا الحربي لم يكن على أرقاه

ولا بدَّ لنا في هذا المقام من ان نورد في إيجاز ما يدور في تأييد سياسة ميونخ ونقدها

١ — مهما تكن تشيكوسلوفاكية جمهورية عظيمة الشأن فإنها ليست مما يجدر ان نقيم سوق الحرب من اجلها. الردُّ على ذلك : — هل يوثق بوعد هتلر ؟

٢ — كانت تشيكوسلوفاكيا غير عادلة في معاملة أقلياتها. الردُّ : — كان في الحكومة التشيكوسلوفاكية وزراء ألمانيون. واذا ليست حالة الأقلية الالمانية في بلاد السوديت بحالة لأقليات العنصرية في بلدان اوربية اخرى تمتعت الامتيازات التي كان يتمتع بها السوديت ينعمون بها. ومهما يسع النطاق ميونخ لا انهُ حوَّل ثلاثة ملايين تشيكي الى ألمانيه مضطهدة حقاً. ولقد كانت تشيكوسلوفاكيا تحسب جمهورية عجيبة في انشاء الدستور طي جمهوري قبل ان عقدت اتفاقها وزادت جريدة التيمس ان تمثل تلك المشكلة على حساب تشيكوسلوفاكيا بقطع منطقة السوديت منها مع انها كانت تعلم ان معظم الماني السوديت — لكل الأعذار — وهم

٣ — كان من المتعذر على بريطانيا وفرنسا مساعدة تشيكوسلوفاكيا مباشرة لأنها في قلب

اوربا ولا وصول اليها . الردُّ : — خير وسائل الدفاع عن صديق معتدًى عليه هي مهاجمة المعتدي من اوراء . فالحصر البحري وشغل سلاح الطيران الجوي ومهاجمة خط سيجفريد قبل تمام انشائه، جميع هذه الوسائل كانت كافية لمساعدة تشيكوسلوفاكيا اذا اعتدت المانيا عليها . ومن المرجَّح ان هتلر نفسهُ لم يكن غافلاً عنها . ثم هل كانت بولندا في سنة ١٩٣٩ أقرب الى بريطانيا وفرنسا من تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨

٤ — لو حاربت تشيكوسلوفاكيا لسحقت ؟ الرد : — كان لتشيكوسلوفاكيا خطوط محصنة في مناطق جبلية وجيش مسلح بعد مليونًا ووراءه مصانع سلاح عظيمة (مصانع سكودا) فاجتياح المانيا لتشيكوسلوفاكيا إجتياحاً سريعاً في سنة ١٩٣٨ لم يكن أمراً محتملاً من الناحية العسكرية

٥ — أنقذت تشيكوسلوفاكيا باتفاق ميونخ . الرد : دنت الحوادث على أن الضد هو الواقع

٦ — كان الشعب البريطاني ممتنعاً عن تأييد تصريح يضمن سلامة تشيكوسلوفاكيا ضماناً ينفذ من تلقاء نفسه اذا اعتدي عليها . الردُّ : — إذا كان تشمبرلن قد أفضى بتصريح من هذا القبيل فأنهُ كان ولاريب ينتقص من منزلته في نفوس الشعب البريطاني . وهل أفضى ضمانه ليولونيا الى مثل هذا الاعتراض ؟ إن الدول الديمقراطية ما تزال قادرة على الاستجابة الى الزعامة الحازمة . وقد تبعتهُ الأمم البريطانية مفتحة البيون الى الحرب تنفيذاً للضمان البولوني

٧ — لم تكن بريطانيا متأهبة للحرب في سبتمبر ١٩٣٨ . الردُّ : — الواجب يقضي على كل حكومة ان تكون قدرتها على الدفاع وافية في كل وقت . ثم ألم يخسر الحلفاء خسارة عسكرية عظيمة بتسليم حصون تشيكوسلوفاكيا وتسريح جيشها المسلح وسلاحها الجوي وسقوط مصانع سكودا في أيدي الألمانيين ؟ . وهل تكفي سنة من التأهب الحربي لتعويض خسارة من هذا القبيل؟

ومهما يكن من أمر فالسياسة التي جرى عليها تشمبرلين في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانتهت الى اتفاق ميونخ كان لها أصل في طبيعته وهو مقت الحرب والنفور منها أو أصل في الواقع المفوس وهو خطر نشوبها حينئذٍ . وستبقى هذه السياسة موضوعاً للجدال والمناقشة بين مؤيديها ونقديها الى أن تتاح جميع الحقائق للمؤرخ المنصف في المستقبل . ولا ريب في ان تشمبرلن بذل غاية ما يستطيعه انسان لصون السلام في تلك الأيام فاز فوزاً مؤقتاً لا غير . ولكن معاصيه أظهرت العالم أجمع على حقيقة المقاصد البعيدة التي يقصدها زعماء الوطنية الاشتراكية

ولم تثبت أن لاحت من الحرب معالم استطاع تشمبرلين ان يتكلم صباح ٣ سبتمبر ١٩٣٩ باسم أمة متحدة تؤيدهُ بدان الامبراطورية وأمم وجماعات في مختلف انحاء العالم . وجميع الذين اشتغلوا معه في أشهر الحرب الأولى من سبتمبر ١٩٣٩ الى مايو ١٩٤٠ — عند ما استفتان — يشهدون ان الجزء المنصف الذي تحلى في مسعاه لصون السلام قبل نشوب الحرب لم يبارحه في مواصلته . وانهُ من أعظم بواعث الأسى أن يقضي قبل أن يبلغ ثمر النصر ولكنه رأى تباشيره